

ملف: سبعون صلاح عيسى

تجليات المقريزي

عيد عبد الحليم

عبر رحلته الصحفية التي تمتد لأكثر من أربعين عاماً استطاع صلاح عيسى أن يقدم نموذجاً متميزاً للكاتب الصحفي صاحب القضية والرأى من خلال ثقافة عميقة وأسلوب فريد صنع جسراً من التلاقى بينه وبين القراء من مختلف الأجيال.

أسلوب تميز بالحفر بالقرب من جذور الشخصية المصرية، والنبش فى المسكوت عنه تاريخياً وسياسياً وثقافياً، فامتدت مساحة الكتابة واتسعت رقعتها لتضم فيما تضم، التحليل السياسى والنقد الاجتماعى والنقد الثقافى والتأريخ، بالإضافة إلى الكتابة الإبداعية والتي أظن أنها كانت المنطلق الأول الذى انطلق من خلاله «عيسى، إلى المجالات الأخرى، وقد قدم فى هذا المجال مجموعة قصصية ورواية.

ومنذ كتابه الأول، الثورة العرابية، والذى صدر عام ١٩٧٢ قدم صلاح عيسى نموذجاً للباحث فى التاريخ المصرى، فلم يقدم التاريخ - كمجرد أحداث وشخصيات وتواريخ - بل استعرض الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتفاصيل الأحداث وأبعاد الشخصيات، وهذا ما يمكن أن أسميه بـ «التاريخ الحى»، فهي ليست تواريخ عابرة بل حياة كاملة، كأنما يراها القارئ من لحم ودم.

ورغم أن شخصية المؤرخ تتوازى مع شطارة الصحفي، فى شخصية صلاح عيسى، إلا أنه من أكثر المهتمين بالتأريخ الاجتماعى - وأظن أن للصحافة دوراً مهماً فى انحيازه لهذا النوع المهم من التاريخ -، فقدم لنا دراسات اتسمت بالرصد والتحليل والجسارة، والنبل، كذلك فى المسكوت عنه أو بمعنى أدق فى الحقائق الغائبة التى لا يلتفت إليها المؤرخون الرسميون، أو ما يمكن أن نسميه بـ «التاريخ الهامشى للوطن»، أو ما أسماه صلاح عيسى، بـ «حكايات من دفتر الوطن»، التى قدم للمكتبة العربية منها حتى الآن - عدة أجزاء لعل أشهرها كتاب «رجال ريا وسكينة» - والذى تحول إلى مسلسل تلفزيونى شهير - قام ببطلته عبلة كامل وسمية الخشاب وسامى العدل ورياض الخولى، ويروى الكتاب قصة أشهر جريمة وقعت فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين وهى «قصة ريا وسكينة» ابنتا همام واللذان روعتا الشارع المصرى، إلى أن تم القبض عليهما وتم الحكم عليهما بالإعدام عام ١٩٢٠، ولم يقدم «عيسى» القصة فى سياق تاريخى جاف إنما استفاد من تقنيات السرد الروائى والحكاى، مقدماً تفسيرات لظهور تلك الظاهرة، التى ارتبطت بظهور موجة من العنف الجنائى والسياسى التى شهدتها مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عبر دراسته لجملة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى أفرزت تلك الظاهرة وأحاطت بها، كاشفاً طبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى عاشتها مصر فى بدايات القرن العشرين، وكيف أسهمت ظروف الفقر والقهر والجهل فى تشكيل شخصية رجال ريا وسكينة بدرجة أو بأخرى، رغم ما لديهم من استعداد، وبشاعة ما ارتكبوه من جرائم وشروع استحقوا بهم مصيرهم المحتوم.

وبنفس القدر من البحث والدأب جاءت دراسته المهمة «أفيون وبنادق»، التى قدم من خلالها سيرة «محمد محمود منصور الشهير بـ «خط الصعيد»»، فقدم إحدى الظواهر الإجرامية التى شغلت رأى العام لسنوات طويلة، فراح يبحث فى ملف القضية مستعرضاً الملابس التاريخية والاجتماعية التى أفرزت الظاهرة وحولتها من محيطها الاجتماعى إلى أسطورة تناولها الناس على امتداد رقعة الوطن.

بالإضافة إلى ذلك جاءت كتبه «هوامش المقرئى»، و«رجال مرج دابق»، و«البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة»، و«مثقفون وعسكر» - والذى أراه واحداً من أهم الكتب التى صدرت فى النصف الثانى من القرن العشرين فى مصر - بما يتضمنه من مقالات فى التحليل السياسى والاجتماعى والثقافى خاصة عن فترة الستينيات والجيل الذى ظهر

فى تلك الفترة من المثقفين.

وصولاً إلى كتابه عن أحمد فؤاد نجم، شاعر تكدير الرأى العام، والذي تضمن التحقيقات مع نجم، وقصة اعتقاله. وكتابه، البرنسية والأفندى، وكلها تدخل فى منطقة خاصة هى التى ميزت البعد التاريخى فى شخصية صلاح عيسى وهو أنه يهتم بالشخص الذى يكتب عنه، إيماناً منه بأن الأشخاص هم الذين يصنعون التاريخ مثلما يصنعهم التاريخ.

(٢)

هنا محاولة للاقترب من صلاح عيسى الإنسان والمثقف والمؤرخ

●● ماذا عن النشأة والتكوين وتأثيرهما على حياة صلاح عيسى؟

- أنتهى إلى الجيل الذى ولد على مشارف الحرب العالمية الثانية، وفى تقديرى أن هذا الجيل تعرض لتأثيرات ربما تكون مختلفة نسبياً عن الأجيال السابقة واللاحقة من المثقفين المصريين.

ولدت فى ٤ أكتوبر ١٩٣٩ بقرية تنتمى إلى محافظة الدقهلية أسمها، بشلا، وهى قرية فرعونية قديمة، بها تركيبة مختلفة عن القرى المصرية لأنها تجمع بين الطابع الريفى والطابع المدينى، الجزء الأكبر من سكانها كان يعمل بالحرف والجزء الأقل بالزراعة. أنتهى إلى أسرة من البرجوازية المتوسطة حيث كانت تعمل بالمقاولات، وقد تلقيت تعليمى الأول بالقرية وعمري تسع سنوات، انتقلت للقاهرة فى خريف ١٩٤٨، طفت مدارس مختلفة من حيث التركيبة الاجتماعية من، المبتديان الابتدائية، إلى، قصر الدوبارة إلى، الخديوية، إلى، الخديوى إسماعيل..

أسرتى كانت مهتمة بالعمل العام، بالإضافة إلى طابعها المدينى، كان فيها أعضاء بالإخوان المسلمين وآخرون وفديون وآخرون أعضاء فى حركة «مصر الفتاة»، أمى كانت سيدة أمية ولكنها كانت تحتفظ كشأن كل النساء فى الريف المصرى آنذاك بتراث واسع من الحكمة الفطرية ابتداء من المواويل والحكايات الشعبية، كانت سيدة صبورة تتحمل، ووالدى كان ابن المدينة شخصية متفتحة واسعة الأفق.

وسط هذا المناخ بدأت أهتم بالعمل العام.

وأدين إلى أبى وأمى بالاهتمام بفكرة الثقافة الشعبية وبالسياسة أيضاً، فبيتنا كان مليئاً بتشكيلة من الصحف - وهذا ما خلق فى فكرة التمرد من البداية.

•• ربما كان ذلك أحد الأسباب لظهور الوعي السياسى المبكر لديك؟

- هذا صحيح، فوعيى السياسى تكُون مبكراً، فأفقى توسّع حين قدمت إلى المدينة، كانت حرب فلسطين فى أواخرها ، كنت فى مرحلة الثانوية القديمة كنت فى مدارس تقيم إضرابات كل مدرسة بها زعيم من الطلبة، ونصل فى ١٩٥٢، بالهتاف ضد الملك فاروق، كما شهدت عن قرب حريق القاهرة وكنت أحد المشاركين فى المظاهرات التى انتهت بالحريق لكننى لم أمارس إشعال النيران، لكن الجانب الذى وجه اهتمامى إلى هذا النحو اهتمامى بالقراءة مبكراً، وقد بدأت بقراءة القصص البوليسية، أرسين لوبين، وشارلوك هولمز، وأذكر أن أبى قال لى، ماهذه التفاهة التى تقرأها، حيث كان عنده قناعة أن الأفضل هو قراءة طه حسين، وبدأ يفتح أمامى المجال للقراءة الأدبية حيث بدأ يشتري لى الكتب للأسماء اللامعة، وكنت أذخر مصروفى لأشتري ما أريد وإن زاد ثمنه كنت أكتب ورقة وأعلقها حيث كنت أنام مبكراً فأجده فى الصباح تاركا لى ثمن الكتاب.

حب المغامرة

ربما حبك لقراءة الروايات البوليسية جعلك تباشر التاريخ فى كتابة تقترب أحيانا من هذا العالم خاصة فى كتبك عن «ريا سكينه»، و«خط الصعيد»، و«البرنسيصة والأفندى»، وغيرها وهى عن حوادث تاريخية حقيقية؟

- أولاً القصص البوليسية فيها ميزة مهمة وهى عنصر التشويق، بعض النقاد اعتبر اللص والكلاب، لنجيب محفوظ رواية بوليسية، هى نوع من تحويل الكتابة إلى أدوات الجذب، هذا الشكل مختلف عن استخدامها لمجرد الإثارة.

بعد ذلك بدأت القراءات تتسع خاصة فى التاريخ، وأدين أولاً لأحمد بهاء الدين بعد أن قرأت كتابه المهم، أيام لها تاريخ، - وقد كنت أكره قبل ذلك التاريخ بشدة وقد ذكرت ذلك فى مقدمة كتاب، حكايات من دفتر الوطن، - عندما قرأت كتاب أحمد بهاء الدين، أكتشفت أن هناك حوادث قد تكون هامشية وليس لها أهمية وقيمة ولكنها تصب فى الظاهرة التاريخية.

نوع الكتابة التى كان يكتبها بهاء الدين، وحبيب جماتى قادنى إلى جورجى زيدان وجعلنى أذهب للمصادر الأساسية للتاريخ واهتم بها ثم أحاول الكتابة فيها بمنهج اعتقد أنه مختلف من خلال مدرسة كانت جديدة فى ذلك الحين وهى المدرسة

الاشتراكية، التى تعتمد على المنهج المادى فى تحليل التاريخ.

التاريخ الاجتماعى

•• أنت من المؤرخين الذين يعتمدون على تحليل الشخصية أكثر من تحليل الحدث نجد ذلك بداية من كتابك «الثورة العربية»، وما تلاه من كتب؟ خاصة وأن هذا الكتاب جاء فى فترة قاسية وصعبة حيث صدر عام ١٩٧٢، هل يمكن أن نقول أنه كان محاولة لاستعادة الوعى بالتاريخ المصرى؟

- الثورة العربية كان فى أصله ١٢ مقالاً نشرت فى الملحق الأدبى لجريدة المساء الذى كان يشرف عليه زميلنا وصديقنا عبد الفتاح الجمل، وقد تعرض جيلنا لهزات عنيفة بعد هزيمة ٦٧، وردود أفعال جيلنا تنوعت هناك من تعرضوا لهزات نفسية، وهناك من هرب، وهناك من صنع أدباً مقاوماً، فى تلك الفترة رأيت أن إنقاذى من هذه الحالة هو قراءة التاريخ المصرى المعاصر، وكتبت هذه الدراسة وكان عنوانها الأسمى «الثورة العربية الدستور وجيش الفلاحين»، وكانت تقدم الظاهرة الثورية بشكلها المتكامل فى ذلك الحين على الصعيد الدولى، والمحلى، وكان بها فصلان مهمان حول «التيارات الفكرية، فى ذلك الوقت، وموقف الثورة من تشكيل الجبهة الوطنية.

وأنا مع طارق البشرى فى قوله: «إن اختيار المؤرخ لموضوع ما لكى يكتب فيه فى زمن ما ليس ببعيد عن القضايا التى يطرحها ذلك الزمن سواء وعى ذلك أو لم يعه.. وفى مقدمة الكتاب أشرت إلى أننى بذلت مجهوداً كبيراً حتى أبعد آثار النكسة ٦٧ عن نفسى وأنا أكتب، كى لا يختل فى يدي ميزان الحياد العلمى المطلوب للتأريخ للظاهرة التاريخية.

بعد ذلك دخلت السجن عام ١٩٦٨ وبعد فترة جاءتنى رسالة، فهمت فيها أننى سأظل فى السجن لفترة طويلة، وكان جو السجن بدأ يتسع كجزء من آثار النكسة، وهذا مكنتنى من أن أبعث لطلب مراجع الثورة العربية كاملة، ولمدة عامين أو أكثر بدأت أكتب وأقرأ الفصول على زملائى فى المعتقل إلى أن أنجزت المشروع.

فى هذه المرحلة نشأت فكرة «حكايات من دفتر الوطن، لأنه على نحو ما فإن الجيل الذى نشأ فى ظل ثورة ٢٣ يوليو جيل يكاد يكون ممسوح الذاكرة الوطنية، فكانت الفكرة الأساسية أننى كنت شغوفاً بالصحافة فى التواصل مع مساحة أكبر من القراءة كنت أريد من مشروع «حكايات من دفتر الوطن، أن يأخذ ظاهرة تبدو هامشية تماماً، لكن

هى فى نفسها تتركز فيها قوانين حركة التاريخ لتلك المرحلة.

ووضعت تخطيطاً لهذه المشروعات وقلت أننى سأعتمد على الدراما الطبيعية فى حوادث التاريخ، وأعيد تخليقها فى أسلوب أدبى يعتمد على الحكاية والتشويق.

فتحولت بعض الفصول إلى كتب ضخمة كانت تلتقط ظاهرة هامشية، قد تكون قصة حب أو جريمة أو محاكمة قضائية بتهمة الاتجار بالرقيق بعد إلغاء الرقيق فى مصر إلخ فأكتب هذه الفصول.

كل ما كان فى ذهنى وقتها هو رؤية تحررية تتضمن انحيازاً كاملاً للحرية والديمقراطية، أكتشف هذه الأشياء الآن، ربما لم تكن واضحة فى وقتها بالشكل الكافى.

الجانب الآخر أن يكون بها قدر من الجاذبية من ناحية العمل، وهو عمل أكاديمى تماماً يعتمد على الدراما الطبيعية فى التاريخ، وليس فيه حرف واحد أو جملة حوار لم ترد فى مرجع أساسى.

وأسعدنى أن هذه المقالات قد لاقت اهتماماً من القراء.

والمرحوم «رجاء النقاش، قد تحمس للمشروع وطلب منى أن أنشره فى «مجلة الإذاعة والتلفزيون، حين كان رئيساً لتحريرها.

وهو أول من لفت الإذاعة والتلفزيون لأهمية أن تتحول تلك الفصول إلى أعمال درامية، إلا أن ذلك لم يتحقق إلا بعد فترة طويلة.

●● «ريا وسكينة، مثلاً حققت جماهيرية كبيرة عند عرضها فى مسلسل تليفزيونى، فما المانع من تحويل باقى الأعمال إلى دراما؟

- المانع أن البعض كان يريد مسح الذاكرة الوطنية، لكن هذه المدرسة بدأت تتحرك ببطء، حين اكتشف المنتجون، أن هذه الأعمال تحقق نوعاً من الجاذبية، ودائماً كنت أقول إن هناك شيئاً غريباً فى المزاج المصرى أن الذائقة تكون مفتونة بتراث الموسيقى العربية، لكنها تحب سماع الأجيال التالية.

وفى الدراما بدأت تتحرر الدراما من حساسيات رقابية معينة. وجاءت الظروف وتوهمت، وبدأت هذه الأشكال تأخذ مجالها ووصلتنى وإن جاءت متأخرة.

●● كانت كتابة التاريخ حكراً على الأكاديميين، وفى جيلك ظهر ثلاثة من خارج تلك المدرسة وهم د. رفعت السعيد وطارق البشرى، وأنت؟ فما الفرق بين

المدرستين كما تراها؟

- مدرسة التاريخ بشكل عصري وحديث بدأت خارج الجامعة ، بدأت بأعمال جورجى زيدان، وأحمد حافظ عوض فى كتابة «بونايرت فى مصر» ، وعبد الرحمن الرافعى، وهو محامى وليس مؤرخاً بدأ منذ عام ١٩٢٩ .

الإنجاز الأساسى للأساليب التاريخية بشكل حديث كان خارج الجامعة . ولم ينشأ أصلاً قسم التاريخ فى الجامعة المصرية إلا بعد ذلك وقد أسس هذا القسم أستاذنا محمد شفيق غريال وله كتابات قصيرة جداً ، الإشكالية فى هذا الموضوع تكمن فى مناهج التاريخ نفسه، أعتقد أننى ود. رفعت السعيد، ود. عاصم الدسوقي، ود. عبد الخالق لاشين وغيرنا وأساتذتنا رشدى صالح ود. فؤاد مرسى المدرسة التى حاولت أن تطبق المنهج الاشتراكى على تفسير الظواهر التاريخية، وكان فيها طارق البشرى فى أعماله الأولى قبل أن يتجه إلى منهج مختلف ويتراجع عند أفكاره.

من ناحية الأسلوب نشأت مدرسة الهواة التى تضم الرافعى وأحمد شفيق لكن حصل انهيار فى المدرستين ، فى المدرسة الأكاديمية برزت أسماء لامعة ومؤثرة خصوصاً تلاميذ د. محمد أنيس ، وسعيد عبد الفتاح عاشور، وتلاميذه ، وحسن إبراهيم حسن وتلاميذه فى التاريخ الإسلامى، مدارس عظيمة جداً خاصة فى تحقيق التراث والمخطوطات. أما مدرسة الهواة فشهدت مؤرخين احتفظوا بمستوى رفيع فى البحث التاريخى. لكن للأسف دخل فى هذه المدرسة مجموعة من الصحفيين الذين بدأ يكتبون ما يسمى بـ التاريخ الإعلامى، القائم على «قشقة» المعلومات.

الأدب والسياسة

●● البعض يرى أنه كان من الممكن أن يكون لك مستقبل أكبر فى القصة والرواية خاصة بعد صدور مجموعتك القصصية ومن بعدها الرواية، هل لعملك الصحفى تأثير فى تركك الكتابة الإبداعية أم التأثير الأكبر كان للعمل السياسى؟

- الأغلب الأعم شخصية السياسى، حيث كنت عضواً فى أحد التنظيمات الشيوعية الموجودة فى ذلك الحين، وكان هذا التنظيم يضم عدداً من المبدعين المقتدرين فى مجالات مختلفة، أنا بدأت حياتى كاتباً للقصة، وكنت فى البداية أكتب الشعر لكننى صارحت نفسى بأننى لا أصلح للشعر.

وقطعت كثيراً من قصصى لكننى لم أكتشف خطئى إلا بعد ذلك، المجموعة القصصية

والرواية تمت كتابتهما أثناء اعتقالى فى الفترة ما بين ١٩٦٢ - ١٩٧١ ، والتجربة كانت تلح علىّ، وستجد فيهما فكرة كانت تراود جيلنا كله وهى الحرية، الفكرة الجوهرية التى كانت عندى أننى ضد أى محاولة أو أى ظروف لإكراه الإنسان أن يعتقد ما لا يستريح له.

●● ولكن رغم وجود تقنيات مختلفة فى السرد داخل الرواية والمجموعة القصصية إلا أننا نجد أن عنوانهما أقرب إلى عنوان المقالات السياسية والتاريخية حيث غلبت شخصية المؤرخ على شخصية السارد فى اختيار العناوين؟

- حدث تداخل ، فاهتمامى بكتابة القصة مؤثر جداً فى مشروع ، حكايات من دفتر الوطن،، وستجد فى النهاية أن ، الفورم، الذى أقدم من خلاله التاريخ هو دراما تفاصيل الحدث. ولذلك من كتبوا سيناريوهات عن أعمالى قالوا لى: ،أنت كاتب مريح جداً، لأننى أدرك أن الكتابة والفن هى ،التفاصيل،، وفى التاريخ هى تفاصيل الحقيقية وأذكر أن الراحل يوسف إدريس حين نشرت المقالات التى جمعتها بعد ذلك فى كتاب ،تباريح جريح، ، كان رايه أن هذه المقالات هى قصص قصيرة، وقال لى أنه من الممكن وضعها فى إطار ما سسمى بـ ،المقال القصصى،.

وأرى أن كل خبراتى الكتابية خدمت المشروع الذى أتحرك فيه.

●● الكتابة الصحفية المتكأة على بعد تاريخى تكون أكثر جذبا للقراءة كيف ترى - مستقبل هذا الجانب من خلال الأجيال الجديدة؟

- رأى أن الكتابة أدبية وغير أدبية هى فن التفهيم، والكاتب يختار من يخاطبه، إما لأسباب تتعلق بدورى كسياسى ، وككاتب أسعى إلى التأثير فى أوسع مدى ممكن فى النخبة من خلال الكتب ذات الطابع الأكاديمى وكذلك القارئ العام والمتوسط ورجل الشارع، وحين أكتب مقالاً أضع نفسى مكان القارئ هل سيفهم ما أكتب أم لا . لكن للأسف نشأ - الآن - جيل من الكتاب الذين يعتمدون على الإشارة، وهناك البعض الذى يعتمد على الرونق والشكل فى الكتابة لكنها خالية من المضمون.

وهناك عدد من الكتاب الشباب فى الصحافة فى تلك الفترة لكنهم يهدرون مواهبهم فى كتابة تعتمد على الإشارة والسب وتخليص الثارات، تفتقد للعمق الكافى لعرض أفكار حقيقية تصل للناس وتعبّر عن مصالحهم.



●● هناك عدد من كتبك وكثير من مواقفك جاءت دفاعاً عن حرية الصحافة؟

- اهتمامى بحرية الصحافة جاء كجزء من اهتمامى بفكرة الحرية، حرية الفرد حرية البحث العلمى وحرية العقيدة والديمقراطية السياسية، ولى رؤية ومعارك خضتها على مدار العمر، وقراءتى فى الصحافة المصرية ووثائقها واسعة جداً، لاسيما فى أبحاثها التاريخية.

اعتقد أن الصحافة المصرية تتمتع الآن بقدر كبير من الحرية الواسعة التى لم تتمتع بها فى أى عهد من العهود.

لكننى أعتقد أننا أمام مشكلتين: أولهما أن هذه الحرية هى حرية عاطفية بمعنى أنها تعتمد على سماحة الحاكم وليست على حقوق وقوانين دستورية. ولذلك مازال الدستور مليئاً بقوانين تقييد الحريات.

المشكلة الثانية: أنه لم يعد الخصم الأساسى لهذه الحرية عناصر من داخل النظام الحاكم، ولكن وجود تيارات قوية فى المجتمع تكاد تكون هى رأس الرمح خاصة الأصوليين الإسلاميين الذين لديهم مشكلات ضد البحث العلمى والأدب ومازالوا ينظرون إلى ذلك نظرة متخلفة ترجع لعهود ما قبل اكتشاف الطباعة ■